

1

نظرة عامة المعايشة: شيء ما يحدث

"روبرت تشامبرز"

ولكن ما سوف يكون فعلاً هو ما يصعب التكهن به مسبقاً.

وكل هذا يندرج ضمن مصطلح المعايشة: زائر ينغمس في الحياة اليومية بعد أن يترك خلفه أمتعة الدور الذي اعتاد القيام به والمنظمة والأهمية ثم الإقامة لبضع أيام وليالي في هذا المجتمع، وهناك مساحة للأنشطة والشروط ذات الصلة يمكن التعبير عنها، فبالنسبة "للوكالة السويدية للتنمية الدولية" في بنجلاديش فإن "التحقق الواقعي" يستخدم لدراسات الاستماع الخلاق مع المعايشة لجمع المعلومات من الحوارات الممنهجة مسبقاً مع الفقراء (Jupp et al)، إن الأنشطة والتعبيرات المختلفة تظل جميلة طالما نقول كيف نستعملها، وهنا أؤكد على المعايشة وعلى أنها تحتوي على أنشطة لها أسماء أخرى مثل (برنامج التعرض والحوار) (Osner, Möller, Hilgers) وكذلك ما يذكره "أشيش شاه" أن التحقق الواقعي هو "التحقق من عملك" وأيديولوجيتك وممارساتك مقابل الواقع الذي يواجهه المواطن الفقير.

اكتساب الزخم

خلال العقد الماضي تحديداً بدأت المعايشة تتطور بشكل هادئ وتكتسب زخماً كبيراً، لقد كان بناؤها بطيئاً ولكن بثبات، والأنماط السابقة للمعايشة تضمنت ملاحظات المشاركين من علماء الإنسانيات الاجتماعية، وأثناء العقود القليلة الماضية ازداد عدد المنظمات التي تروج للمعايشة وتبناها، وبعض من أكبر البارزين في هذا المجال - إن لم يكن كلهم - ممثلين في هذا العدد.

لقد قام بالمبادرة الرئيسية المبكرة "كارل أوسنر" والذي ابتكر فيها "برنامج التعرض والحوار"، ومنذ بدايتها في الثمانينات أصبح هناك الآن 77 برنامجاً للتعرض والحوار مع ما يقرب من 1000 من المشاركين (أعضاء من البرلمان الألماني - كبار المسؤولين - قيادات المنظمات غير الحكومية والقطاع الخاص ووكالات الإغاثة - وموظفين حكوميين) في أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا وجنوب شرق أوروبا، ولقد بدأت "الجمعية النسائية للعمل الذاتي" وهي عبارة عن اتحاد عمل ضخم للنساء الفقيرات في الهند؛

إن هذا العدد من "التعلم والعمل بالمشاركة" حول المعايشة يعتبر غير مسبوق، ولقد كان هناك أعداد سابقة مخصصة حول موضوعات معينة، ولكن لم يكن هناك عدد من الست وخمسين عدداً السابقة يركز مثل ما يركز هذا العدد على قلب الوعي بالتنمية والالتزام بها وممارستها، إن التجارب المعروضة هنا تشعرك بالإلهام وأيضاً بالاضطراب، إنها تتحدانا على المستوى المهني والمؤسسي والشخصي، إنها توضح لنا وبهدوء بزوغ شيء واعد يحدث ويكتسب زخماً كبيراً، إنها تدفعنا للتساؤل إلى أي مدى يمكن للمعايشة أن تغير من نوعية ما كنا نفعله تحت مسمى التنمية.

ما الذي نتحدث عنه؟

كما توضح المساهمات في هذا العدد فإن المعايشة قد تتخذ أشكالاً كثيرة، فلا يوجد نموذج أو صيغة، فبعضها يتم من خلال التنظيم الذاتي أو حتى يكون تلقائياً وليد اللحظة والبعض يكون منظماً من خلال برنامج، وبعضها مفتوح بغرض التعلم التجريبي والبعض الآخر موضوعي يهدف إلى التركيز على التعلم وعن موضوع أو قطاع بعينه، والبعض شخصي وفردى والبعض الآخر وهو الأكثر شيوعاً يكون في مجموعات، ولكن السمة المشتركة في الكل تقريباً هي البقاء في مجتمع فقير بصفتك شخص يعيش مع إحدى العائلات المضيفة تساعدهم وتشاركهم مهام حياتهم، ويمكن أن يتم ذلك بأي عدد من الأيام أو الليالي وغالباً ما يكون من يوم إلى 10 أيام والأكثر شيوعاً من 3-4 أيام، والمبيت أمر حيوي للعلاقات والخبرات والمحادثات الهادئة بعد حلول الظلام، وحتى المعايشة الموضوعية غالباً ما تكون مفتوحة تماماً، وقد تكون هناك أنشطة مثل العمل مع ومساعدة العائلة والاستماع والحوار ومعرفة تاريخ حياة العائلة والاحتفاظ بذلك في اليوميات أو محاولة إيجاد تفسير لعملك وأهميته، ولكن الجوهر هو أن تكون مفتوحاً لما هو غير متوقع وغير مخطط له وأن تعيش وأن تكون هناك وأن تتعامل بصفتك إنسان، وما لم يُخطط له غالباً ما يكون الحدث الأبرز والأهم والمحرك، وسيكون هناك الكثير من الخبرة والتعلم

موظف "إدارة التنمية الدولية
البريطانية" يعمل في الحقل مع
العائلة المضيفة في جمع أوراق
التوت خلال معاشة "أكشن أيد"
في الصين



تصوير أكشن أيد

بدأت منذ عام 1991 استضافة برامج التعرض والحوار للآخرين (Kanbur, Fields, Patel) وتستخدم ذلك للعاملين بها منذ 1999 (Nanavaty, Shroff)، وبعد أن أصبح "جيمس وولفسون" رئيساً للبنك الدولي في 1995 قدّم المعاشة كجزء من برنامج هارفارد التنفيذي للتنمية والذي يحضره كبار موظفي البنك (Nunes, Isa, Bresnayan)، ولقد تلاققت توجهات برنامج التعرض والحوار والجمعية النسائية والبنك الدولي كلها سوياً في المعاشة الرائدة التي قام بها "رافي كانبور" عند الإعداد لتقرير التنمية الدولي لعام 2000 حول التنمية والفقر، وسوف نعرض لجزء من مقال "رافي" عن تجربته بعد الجزء التمهيدي.

ومنذ ذلك الحين تقوم "المدرسة الدولية" في السويد ببرامج سنوي يشمل 6 رحلات عالمية كل عام يشترك في كل رحلة 20 - 25 معلماً يقضون خلالها 10 أيام مع عائلة ريفية، وكانت هذه الرحلات تتوجه إلى بلدان مختلفة بما فيها "بنجلاديش" حيث كانت تقوم بتيسير تلك الرحلات المنظمة غير الحكومية الوطنية "بروشيكسا" (Kramsjo)، وفي العديد من البلدان الأخرى مثل الهند وكينيا قام موظفو "أكشن أيد" لسنوات كثيرة بمزاولة المعاشة (Samuel, Shah) ويقومون بتنظيم هذا النشاط الآن للآخرين (Awori, Eyben, Thomson, Ruparel)، وتستخدمها المنظمات غير الحكومية الوطنية للموظفين العاملين بها (Kumar and Haridarkee, PRADAN HRD)

ما الذي تقدمه المعاشة

بعض المعاشات لها أغراض محددة، وهناك معاشة موضوعية مصممة للتركيز على قطاع معين أو جانب محدد للتنمية وأحياناً تكون ضمن برنامج منظم، وتستخدم المعاشة للأغراض التالية:

- مراقبة المشروعات (Isa)؛
- للتآلف مع منصب جديد مثلما قامت به "أكشن أيد" في الهند عندما نظمت إحدى المعاشات للمفوض البريطاني عند وصوله للهند؛
- للواقعية التجريبية كجزء من مؤتمر مثل الذي قامت "الجمعية النسائية" (SEWA) بتنظيمه لمنظمة "تنظيم وعولمة العمل غير الرسمي للنساء" (WIEGO)؛

"... الجوهر هو أن تكون منفتحاً لما هو غير متوقع وغير مخطط له وأن تعيش وأن تكون هناك وأن تتعامل بصفتك إنسان، وما لم يُخطط له غالباً ما يكون الحدث الأبرز والأهم والمحرك...".

كما تم التأكيد أيضاً على الأثر على السياسة: إن التجارب المكتسبة من المعيشة خلقت أثراً هاماً على اتجاه الإستراتيجية القادمة للبلاد وقادتها نحو البؤرة المحددة للفقر والالتزام بالبحوث بالمشاركة (التحقق الواقعي) كوسيلة لاكتساب الرؤى من منظور الناس الذين يعيشون الحياة الفقيرة (Nilsson et al).

كلّ هذا فيه ما يكفي لتبرير المعيشة مرارا وتكرارا، وإذا كان هذا هو كل شيء فإنه أكثر من كافي، إلا أن الناس يقولون مرارا أنهم اكتسبوا أكثر من مجرد الرؤى والمعرفة المفيدة، فهم يشدّون وغالبا ما يعطون أهمية أكبر للتعلّم التجريبي والتأثير الشخصي والعاطفي، وهذا له صداه في أغراض أخرى، ويكتب "فريد نونز" أن "جيمس وولفنسون" يقول: "مطلوب مديرين لهم قلب وفكر"، والهدف كان "... إلهاب عاطفة الموظفين لمحاربة الفقر"، ويتساءل "بوسي كرامسجو" كيف يمكن أن تحدث تحولات فكرية وثقافية بدون انغماس كامل، ويقول "جوران هولمكفيست" أن معيشته أعطته أكثر ما كان يأمل فيه "طريق بديل للتعلّم وهو التعرّض العاطفي عوضاً عن الفكر التقليدي... (Nilsson et al)، لقد حصل على الشعور بإدراك "وتر الحياة" ومنظورات الناس الذي عاش معهم، ويكتب "جون سامويل" عن معيشته كحظات شخصية كثيفة: "... لقد جعلتني مضطرباً ولكن مفعم بالأمل... لقد أزعجتني بعمق ولكن في نفس الوقت أعادت شحن نفسي أكثر من أي شيء تحداني من قبل"، بالنسبة إلى "كوي تومسون" كانت وجود مساحة مكانية وزمانية للنسيان وهو أمر له أهميته، وبالنسبة إلى "تاكا أووري":

لقد ساعدتني المعيشة على النمو كمارس للتنمية ولكن الأهم من ذلك مساعدتي كشخص، لقد كانت طريقة مختلفة تماماً في التعلّم لأنني تعلمت بشكل تجريبي، ومن هذا المنظور لقد كنت أتعلّم بكل حواسي وذاتي وليس بفكري كما هو المعتاد في التعلّم، لقد أتاحت لي المعيشة التوقف عن تحليل حياة الفقراء ككيانات للتنمية ولكن أن أكون معهم وأسمح للتعلّم أن ينبثق ذاتياً.

إن الأفضل يجب أن لا يكون عدواً للجيد والعديد من المعاشيات قد لا تكون مثل هذه التجارب العميقة أو تحويلية تماماً، ويجب أن لا يشعر أي شخص بأنه فشل حيث أن تجربته أقل جودة أو غير مؤثرة مثل تلك الموصوفة في هذه المجموعة، فالمعيشة ممكن أن تكون جادة ولكنها أيضاً ملهمة ويمكن أن تأخذ الجانب الأخف من الضحك والمرح والغناء، والرقص، وما يهم هو ما تقترحه المقالات التالية

• لاختيار وإنشاء وبناء القدرات للعاملين في الهند من المنظمات غير الحكومية المختلفة (Kumar and Haridarkee, PRADAN HRD Unit and Jamkar, Shroff, Nanavaty)؛

• لتطوير البرامج على مستوى المجتمع كما في منظمة "بلان/ بنجلاديش" (Yakub and Islam).

ومن الواضح أن هناك إجماع تام على أنّ المعيشة توفر الرؤى والخبرات التي لا يمكن الوصول إليها بالطرق الأخرى، والمشاركون في المعيشة يتعلّمون على نحو شخصي حول حياة الناس ومعيشتهم وثقافتهم والظروف التي يواجهونها، إن العالم قد يبدو مختلفاً من الجهة الأخرى من منظور الناس الذين يعيشون الحياة الفقيرة، ويتم صياغة ذلك من خلال عبارات مختلفة مثل: "وجها لوجه" - "لو كنت مكاني" - "ضع عينك على الفقر"، وهذه الحقائق الراسخة تعطي مرجعية قوية ومصدراً للثقة للتعامل مع السلطات بناء على التجربة الشخصية، ولدى عودتها إلى معهد دراسات التنمية تساءلت "روز ليند أيبين" عن مدى ارتباط مناقشات مراجعة البرنامج بحياة أولئك المضيفين في قرية في غانا، ولقد قادها ذلك لإثارة نقاط لم تكن لتصل إليها من غير المعيشة، وعبارات الشهود الشخصية غالباً ما تعمل على تعزيز المصادقية والأفكار المقنعة والاتصال والحجج (Nilsson et al)، ولقد ذكرت "كاتي أوزوالد" أنّ تجربتها في المعيشة في الصين أعطتها:

"الثقة في التحدّث عن الفقر في ريف الصين بقدر كبير من الخبرة الشخصية، وغالباً ما تلتقي مع من يجهلون مستوى الفقر الذي لا يزال موجوداً في ريف الصين، والآن بالإضافة إلى الإشارة إلى الإحصاءات فأنا يمكنني أن أشير إلى تجربتي الشخصية الخاصة".

غالبا ما تكون هناك رؤى قوية ومذهلة مثل: "رافي كانبور" يصف هذا الحدث بقوله: "لقد غلف الفجوة بين الإستراتيجية على المستويات العالية وبين الحقائق على مستوى أرض الواقع"؛

• التحقّق من خلال المعيشة وهو ما يصفه "أولوف ساندكول" و"جوران تشيل" بعد معيشتهم لإحدى العائلات المنكوبة من "السونامي": في السونامي الثاني لتدفق المعونات الأجنبية تكتشف أن أكثر الكاسيين من هذه الأموال هم أقل الخاسرين في السونامي؛

• "جاري فيلنز" يراجع وجهات نظره الاقتصادية المهنية حول الآثار على المنتجين الفقراء من ذوي الحد الأدنى للأجور؛

• مشارك في معيشة متعلقة بمرض الإيدز في غرب كينيا قال: "عرفت عن الإيدز خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية أكثر مما عرفته في السنوات الست الأخيرة التي أثر فيها الإيدز على أسرتي" (Shah).

"..... ومن الواضح أن هناك إجماعاً تاماً على أنّ المعيشة توفر الرؤى والخبرات التي لا يمكن الوصول إليها بالطرق الأخرى، والمشاركون في المعيشة يتعلمون على نحو شخصي حول حياة الناس ومعيشتهم وثقافتهم والظروف التي يواجهونها، إن العالم قد يبدو مختلفاً من الجهة الأخرى من منظور الناس الذين يعيشون الحياة الفقيرة. . . ."

وهو القلب وكذلك أيضاً العقل والإطار المنفتح للتعلم وللذات، وبالنسبة إلى "كازي أزمات عيسى" فإنها تولد التعلم الغزير، وضمن البحوث بالمشاركة مع العائلات الفقيرة التي أجرتها الهيئة السويسرية (SDC) في تنزانيا تكتب "دي جوب" (Jupp et al):

لقد كانت نتائج التمرين غير عادية، لم تكن فقط ثروة من الرؤى حول حياة العائلات الفقيرة ولكن اتضح أن التجربة كانت تحويلية للعديد من أعضاء فريق البحث.

لماذا لم تطلق المعيشة في وقت قبل ذلك؟

إذا كانت هذه التجارب تعني الكثير وتحدث مثل هذا الفرق فلماذا لم تنتشر بشكل أوسع من ذلك ولا يتم تبنيها على نطاق أشمل؟ من الواضح تماماً أنها يجب أن تكون جزءاً من ممارسة شخصية ومهنية مسؤولة، أنها تكلف أقل من الذهاب إلى ورشات العمل، وتستغرق وقتاً قليلاً - عادة لا تزيد عن أسبوع، وهي ليست مثل ما تفقده أكثر المنظمات من التمويل: تمويل التدريب - بناء القدرات - التطوير المهني وكل ذلك غالباً ما يفقر للتمويل.

هناك ثلاث مجموعات من القوى قد تكون التفسير لذلك.

القوى الأولى شخصية: فمن السهل إيجاد الأعذار خاصة عند الانشغال بالكثير من العمل المهم، ولكن ذلك لا يصمد أمام التفحص الدقيق، فهناك دائماً الوقت لورشات العمل في المناطق المريحة القريبة، ولكن مثل هذا الوقت لا يتوفر للمعيشة التي تكون بعيدة وغريبة ومحفوفة بالتهديدات (Ruparel)، وبالنسبة لي فأنا أمانع في التخلي عن ما هو معروف ومريح مقابل المجهول وربما يكون خارج السيطرة ومزعج، وأخاف إساءة التصرف وأجعل من نفسي أضحوكة، وهنا أنا وآخرون يجب أن يشكروا "رافي كانبور" على مقولته "أعتقد أنني لا أريد أن أذهب إلى ذلك المعبد مرة أخرى" (Birch et al)، إن ذلك يجعل الأمر أكثر سهولة عليّ للإقرار بخطأي المخزي والذي سبب الكثير من الألم للسيدة المضيفة في "جوجارات" حيث قررنا النوم بدلاً من انتظار الناس الذين قطعوا الصحراء لمقابلتنا، وهناك حجج أخرى ممكن أن نسوقها: "أنا أعرف كل شيء عن ذلك، لقد نشأت في قرية (أو حيّ فقير عشوائي)، ليس هناك ما أتعلمه بشأن ذلك (Shah)، والرد على

ذلك ما نجده في انعكاسات المشاركين في "وجهات نظر الفقراء" (Jupp):

دائماً ما كنت أعتقد أنني أعرف حياة القرية حيث أن جذوري من قرية ولا زلت أزور عائلتي في قريتي من وقت لآخر، ولكن لم أكن أعرف أنني لا أعرف شيئاً عن مثل هذا النوع من الفقر وهل من الممكن أن يكون موجوداً.

المجموعة الثانية هي القوى المؤسسية: فهناك العديد من القيم والحوافز التي تمنح كجوائز لكتابة المذكرات والتقارير الجيدة والتحدث في الاجتماعات مع الناس المهمين ولكن القليل جداً هو ما يخصص إلى الاستماع إلى الفقراء غير المهمين، وهناك مجموعة من كبار الموظفين يعتبرون المعيشة عديمة الفائدة وقاتشة أو ضرب من التلصص و/ أو تهديد للخصوصية الشخصية، وهناك ضغوط طبيعية من العمل والأولويات الهامة الأخرى، إن الثقافة البيروقراطية تنظر إلى الداخل وإلى أعلى وليس إلى أسفل وإلى الخارج.

القوى الثالثة هي المقولات البلاغية الحالية حول علاقات التنمية: فبالنسبة للوكالات المانحة والمقرضة كان هناك دائماً الوضع السياسي الصائب والمريح وهو ملكية الحكومية، وبالنسبة للمنظمات غير الحكومية الدولية فقد كان هناك اعتماد متزايد على رؤى الشركاء الذين كان من المفترض أنهم قريبون من الفقراء.

إن السعي للوصول إلى تجربة شخصية مباشرة من خلال المعيشة قد يُنظر إليه عندئذ على أنه عدم ثقة أو تطفل.

إن هذه القوى البلاغية والمؤسسية والشخصية تتجمع سوياً، إن أيّ منظمات أو أفراد تريد إيجاد أعذار لعدم ممارسة المعيشة لن تجد صعوبة في العثور على تلك الأعذار، لذلك فليس من الصعب أن نفهم لماذا لم يكن هناك طلب قوي على المعيشة حتى فترة قريبة.

لماذا الآن؟

الدليل التي تقدّمه المقالات في هذا العدد تجعل من المعيشة ضرورة قوية عن أي وقت مضى، ولكن مع هذا الإدراك المتأخر فإننا نأسف لأن التنمية سارت عقداً تلو الآخر دون أن تتبنى هذه المعيشة، إلا أن الوضع المعاصر يجعل من المعيشة ممارسة قياسية للمضطّلعين بالتنمية أكثر من أي وقت مضى، وذلك لثلاثة أسباب:

أولاً: التغيّر في الظروف وفي الوعي والأولويات واحتياجات الفقراء التي تتغيّر أسرع من أي وقت مضى، وفي كل مكان تقريباً هناك تسارع في التغيير الاجتماعي، إذن هناك تحدي ملح ومتواصل أمام



تصوير:
 توم تشارمان

صناع السياسة والممارسين للبقاء على اتصال وعلى دراية بما يحدث.

ثانياً في السنوات الأخيرة كان هناك حقيقة تبسيطية جديدة اخترقت تفكير وممارسات التنمية، فالجانب السلبي من "أهداف تنمية الألفية" ومن حركة "جعل الفقر تاريخ من الماضي" كان لهما الاعتقاد: "إننا نعرف ما يجب عمله" (خصوصاً في أفريقيا) - والحل هو المزيد من الأموال، والقضايا ليست بهذه البساطة وفي معظم الحالات ليست في الحلول بمزيد من الأموال، ومن أجل الحقائق الصلبة فإن المعيشة تشكل واحدة من أفضل وسائل التحقق من الواقع المتنوع والمعقد للفقراء.

ثالثاً قبضة الفخاخ الحضرية اقتنصت الحكومات ووكالات الإغاثة الرسمية والمنظمات غير الحكومية الدولية وكبار المسؤولين كلهم على حدٍ سواء، لقد أصبحوا مبروتين أكثر وأكثر بالاجتماعات والمفاوضات ورسائل البريد الإلكتروني والتقارير وفي أغلب الأحيان مع موظفين أقل للاشتراك في وباء ورشات العمل وهي الابنة غير الشرعية لهم والعديد منها يدور حول الفقر وكذلك المناقشات حول دعم ميزانية المانحين والبرامج الممتدة عبر القطاع بأكمله وتناغم ذلك مع القضايا السياسية، وكلّ هذا يطلق عليه "كوي تومسون" الكون المتجه للذات"، وكذلك قال "كازي أزما ت عيسى" أنه لاحظ أن "العمالين بالبنك الدولي أصبحوا بشكل متزايد أكثر التصاقاً بالإدارات الحكومية في العواصم والمدن الحضرية مما أبعدهم عن واقع الفقر وعن عملائهم النهائيين وهم فقراء البلد".

إن المعيشة هي وسيلة لموازنة هذه التحيزات والتوجهات: للإبقاء على التحديث وعلى الاتصال وللهورب من فخّ التوجه الذاتي، ومن حسن الحظ أنها تبرز بشكل سريع على جداول الأعمال، وكما يوضح هذا العدد من التعلم والعمل بالمشاركة فإنها أصبحت مفهومة الآن بشكل أفضل، وأصبح الحديث عنها أكثر ومن السهل تنظيمها، وهناك منظمات أكثر تقوم بتنظيمها للآخرين مثل "برنامج التعرض والحوار" - "الجمعية النسائية للعمل الذاتي" - "أكشن أيد" - "براكسيس" - "بروشيك"، كما أن هناك مزيد

من المنظمات والأفراد يقومون بتنظيمها بأنفسهم، إن الأعداد المتزايدة للناس الذين مارسوا المعيشة وتعهدها وتحمسوا لها ويشجعونها أصبحوا يقتربون من تشكيل قدر لا بأس به من الخبرة والقصص والأريز والاتصال والحماس، لقد صارت المعيشة تحظى بقدر متزايد من الاعتراف كممارسة مهنية جيدة يجب تشجيعها ودعمها، كما أن هناك أناس أكثر فأكثر يجعلونها ممارسة شخصية منتظمة (مثال على ذلك: "أوسنر" - "كانبر" - "فيلدز" - "صامويل" - "روباريل" - "شاه").

وهكذا فإننا الآن في القرن الحادي والعشرين وبعد 6 عقود من التنمية نرى أن المعيشة مطلوبة أكثر من أي وقت مضى وربما تكون وصلت أخيراً إلى نهاية المدرج وعلى وشك الإقلاع.

ثم ماذا؟

إنّ النتائج ثورية تماماً، إن التجارب المعروضة في هذا العدد من التعلم والعمل بالمشاركة تتحدى الخيال، اقرأ المساهمات واسأل نفسك: ماذا كان من الممكن أن يحدث لو كان التعلم التجريبي وانعكاسات المعيشة و"التحقق الواقعي" هي معيار الممارسة الجيدة لكل ممارسي التنمية عبر العقود الماضية؟ هل كان سيكون هذا الحرمان والمعاناة والموت الذي وقع على الناس الفقراء جراء التعديلات الهيكلية لو كان هؤلاء المسؤولون قضوا بضعة أيام وليالي من المعيشة في مجتمع يرزح تحت وطأة الفقر؟ هل كان من المحتمل ألا يضع أولئك المسؤولون أي شيء مقابل قيمة الإنسان ويسعون لإيجاد سياسات أخرى؟ ولكي نكونوا موالين للفقراء حقاً هل كان هناك استخدام أفضل لوقتهم من قضاء بعضه في المعيشة؟ إن تفادي هذه المعاناة التي لم يكن لها مبرر من الممكن أن تفجر أي عقل.

وماذا عنا نحن الآن؟

ماذا يريد أولئك الذين يعيشون الفقر أن نفعل من أجلهم؟ هل هم مثل ما يقول "كوي تومسون": "يبدون دهشتهم لأن الخبراء في الفقر لا يهتمون أن يقضوا بعض الوقت معهم؟" كما يضيف "إن أي منظمة للتنمية ترى أن قضاء 4 أيام في العيش مع الفقر هو نوع من الترف فإن ذلك علامة مُرضية"،

هي: لكي نكون جادين بشأن الفقر يجب أن نكون جادين بشأن المعيشة.

إن هذا يتطلب الرؤية والقيادة والشجاعة والأولوية، وذلك يعني أن الوزراء والمسؤولين الدائمين الرئيسيين والرؤساء التنفيذيين وكبار المديرين في وكالات الإغاثة والحكومات والمنظمات غير الحكومية يجب أن يقدموا المثال بالقيام بالمعيشة هم شخصياً وأن يتركوا مساحة للآخرين ليفعلوا نفس الشيء، إن ذلك يعني - مثلما فعلت الوكالة السويدية - أن على المنظمات الأخرى أن تجعل المعيشة أمراً رسمياً وسياسة تشجعها أو تطلب من عاملها القيام بها، ويعني أيضاً أن يخصص لذلك وقت محدد تماماً لتفادي التأجيل أو الإلغاء وتوفير الموارد اللازمة له، وخلاصة القول يجب إعطاء الأولوية للمعيشة سياسياً وعلى مستوى السياسة.

وهكذا فإن السؤال النهائي المزعج هو: بعد كل هذه الشهادات والأدلة في هذا العدد الخاص هل يستطيع أي منا أن يقدم أسباب صادقة لعدم القيام بالمعيشة؟ وإذا لم نستطع ماذا الذي سنفعله حيال ذلك؟

هل يمكننا أو سنستطيع أن نرتفع إلى مستوى التحدي والحجم لهذه الفرصة؟ وإذا استطعنا أكثر وأكثر فهل سيستطيع ذلك عبر السنين أن يغير ما نقوم به وما ارتكبناه تحت مسمى التنمية؟

" . . . إن هذا يتطلب الرؤية والقيادة والشجاعة والأولوية، وذلك يعني أن الوزراء والمسؤولين الدائمين الرئيسيين والرؤساء التنفيذيين وكبار المديرين في وكالات الإغاثة والحكومات والمنظمات غير الحكومية، يجب أن يقدموا المثال بالقيام بالمعيشة هم شخصياً وأن يتركوا مساحة للآخرين ليفعلوا نفس الشيء. . . ."

والقضية ليست في تحمل التعلم التجريبي أو "التحقق الواقعي" الناجمين عن المعيشة، القضية هي أي واحد في أي منظمة مضطعة بأهداف الألفية والعدالة الاجتماعية وخفض الفقر يمكن أن يبرر عدم تحمل المعيشة وأن لا يخصص لها المساحة المناسبة، هل يجب أن يسلكوا مسلك "جوران تشيل" الذي بدأ ذلك كواحد من المتشككين وبعد مضي 3 أيام وليالي مع عائلة من متضرري السونامي نادى بأن كل شخص في "الوكالة السويدية" يجب أن يمارس المعيشة!

إن الأدلة المتراكمة في هذا العدد الخاص تقودنا - مهما كان التردد أو الانزعاج - إلى أن التعلم التجريبي الشخصي وجها لوجه مع أولئك الذين نسعى لخدمتهم يمثل حلقة رئيسية مفقودة في ممارسات التنمية، ومهما كنا قد أطلنا أو بعدنا فإن الخلاصة والرسالة

تفاصيل الاتصال

Robert Chambers
Participation, Power and Social Change Team
Institute of Development Studies
University of Sussex
Brighton BN1 9RE UK.
Tel: +44 1273 606261
Fax: +44 1273 621202 or 691647
Email: r.chambers@ids.ac.uk

"باسراباي" و"ميرايبين" وناظر "موهادي"

"رافي كانبور"

استهل حديثه بمدى صعوبة تعليم أطفال القرية، ووصف الأطفال بأنهم (أحراشيون) نسبة للغابة أو الأحراش، وهي صفة دونية يشيع استخدامها في الهند، شعر "ميرايبين" إن ذلك تجاوز للحدود وأشار إلى أن جزء من عمله أن يحضر إلى المدرسة على الأقل، فالآباء حريصون على أن يتعلم أطفالهم القراءة والكتابة حتى إذا كان حضورهم للمدرسة سيعنى أن الأولاد لن يستطيعوا مساعدة آبائهم في الصيد وأن البنات لن يستطعن مساعدة أمهاتهن في جلب الماء والخشب والعمل في الحقول، إن حادثة "ناظر موهادي" قد غلفت الفجوة بين الإستراتيجية على المستويات العالية وبين الحقائق على مستوى أرض الواقع في مسار مكافحة الفقر وهي الفجوة التي ظهرت مراراً وتكراراً في الأيام القليلة التالية.

في المساء وفي وسط اللقاء تماماً حدث اضطراب في جورانا، فبينما كان شقيق "باسراباي" يحاول ينهي قتال بقرتين أصيب في وجهه إصابة خطيرة، لقد كان ذلك في ساعة متأخرة من الليل وأقرب طبيب كان في المستوطنة الكبيرة المجاورة والتي تبعد 10 كيلومترات، وإذا لم يتلق علاجاً فوراً فإن الجرح سوف يتلوث بالتأكيد، وكانت سيارتنا "الجيب" موجودة ونقلنا شقيق السيدة إلى الطبيب وأحضرناه للقرية مرة أخرى بعد تلقي العلاج، لقد أعادت هذه الحادثة إلى تفكيري مدى هشاشة وضعف الحياة الريفية، ولقد علقت "باسراباي" على هذه الحادثة فيما بعد بأنه لولا وجودي ولولا الحظ الجيد في أن الجرح لم يصب عين شقيقها لكانت أمضت بقية حياتها تشعر بمسؤولية ما حدث لأخيها.

في اليوم الأخير ذهبنا إلى حقل "باسراباي" وهو على مسافة ساعة من السير من منزلها، وهي تزرع فيه الدخان، ولقد رأينا هناك الخطورة التي تهدد الزراعة هناك، فانعدام المطر ترك الأرض جافة صلبة، وأخبرتنا "باسراباي" وهي تجمع بعض الحشائش لماشيتها أنه إذا لم يهطل المطر في الأيام القليلة التالية فإنها ستفقد المحصول وتفقد معه نفقات حرق الحقل واستئجار السائق والجرار.

وعند العودة إلى مدينة "أحمد آباد" حاول كل المشاركين أن يستوعبوا ما مروا به في القرية، وإلى جانب عواطف التجربة (الكرامة الرائعة للسيدات المضيفات والالتزام الشديد للميسرين من الجمعية

"إنها واحدة من أكثر التجارب التعليمية والمؤثرة في حياتي"، هكذا وصف "رافي كانبور" الوقت الذي قضاه في قرية في "جوجارات" في 1999، ولقد قام بتنظيم زيارته "الجمعية النسائية للعمل الذاتي" وهي جمعية تضم ما يقرب من مليون عضوة من النساء اللاتي يعملن في الاقتصاد غير الرسمي بالهند، ومضيفته "باسراباي" إحدى عضوات هذه الجمعية، وخبرات هذه الجمعية في الاستضافة يطلق عليها "برنامج التعرض والحوار" وتناقشه في القسم الأول (Nanavaty et al) والقسم الرابع (Shroff)، وبرنامج التعرض والحوار الذي شارك فيه "كانبور" تم تصميمه كجزء من عملية وضع تقرير التنمية الدولي لعام 2001/2000 والذي يعده البنك الدولي حول محاربة الفقر وكان "كانبور" يقود هذه العملية، ووصفه لتجربته في قرية "موهادي" أصبحت من المقالات المؤثرة في تاريخ المعيشة.

عند وصولنا إلى قرية "موهادي" التابعة لمركز "كوتش" بعد رحلة طويلة بالسيارة كان أول مبنى رأيناه هو المدرسة الابتدائية، ولقد أخبرنا "ميرايبين" الميسر المرافق لنا من "الجمعية النسائية" أن هذه المدرسة قدمت خدمة كبيرة للقرية، فعندما اجتاحت الإحصار القرية في العام السابق وكان أسوأ إحصار عرفه أهالي المنطقة فقد تطايرت أكواخ الأهالي المصنوعة من القش واتخذوا هذه المدرسة كملجأ لهم حيث أنها المبنى الخرساني الوحيد في القرية.

سيدتي المضيفة كان اسمها "باسراباي"، وصلنا إلى منزلها المكون من غرفة خرسانية واحدة بجانب الكوخ القشي التي كانت تقيم فيه من قبل، بعد تبادل التحيات المعتادة كان أول موضوع تطرق إليه الحديث تقريباً هو المدرسة، وحيث أن ذلك كان يوم عمل فقد تساءلنا عما إذا كان الممكن الذهاب والجلوس في أحد الفصول، فأخبرتنا "باسراباي" أن "الناظر" (المعلم) ليس موجوداً ولم يأتي منذ فترة وفي الحقيقة فإنه يحضر مرة كل شهر إذا حضر أصلاً، وقالت يبدو أنه محمي من أحد كبار مسؤولي التعليم في المركز ويستطيع أن يفعل ما يحلو له.

في الحقيقة جاء الناظر في اليوم التالي حيث وصلته الأخبار بوجود زوار في القرية، وانطلاقاً مما يظن بأن الضيوف المتعلمين سيكونون متفهمين لأفكاره

قد يكون هذا نوعاً من الحشو ولكن مع ذلك حشو مفيد، ففي المجتمعات التي يستطيع فيها الفقراء الوصول والتأثير على القرارات التي تؤثر على حياتهم سواء على المستويات العليا أو على المستوى المحلية الضيقة فإن السياسات والتدخلات المناصرة للفقراء تكون أقرب إلى التبنّي والتطبيق، ومن ثم وبالتأكيد فإنه من المنطقي أن تكون جزءاً من إستراتيجية مكافحة الفقر للمساعدة على تطوير الهياكل والمؤسسات التي تتيح بشكل حقيقي وصول الفقراء للقرار وتأثيرهم عليه، وما طرأ على فكري من تجربة "موهادي" و"الجمعية النسائية" - وفي الحقيقة من بعض بحوث الاقتصاد السياسي الأكثر رسمية - هو الدور الهام لمنظمات الفقر وبمعنى آخر: المنظمات التي تقوم على العضوية وتعمل على صياغة طلبات أعضائها وتدافع عن حقوقهم وتراقب التدخلات وتضع الحكومة أمام المساءلة بشأن الفقراء، إن مثل هذه المنظمات لا تظهر فجأة من لا شيء، فلقد استغرقت "الجمعية النسائية للعمل الذاتي" ما يزيد على ربع قرن للوصول إلى ما هي عليه الآن من تأثير على السياسات والتدخلات المحلية والقومية، لكن الوكالات الدولية قد تقوم بالكثير من الأنشطة السيئة بدلاً من أن تسأل نفسها هل ما تقوم به من أعمال وتدخلات يمكن أن يدعم ويساعد تطوير منظمات الفقر.

النسائية ذرفت الدموع من عيوننا جميعاً عندما بدأنا قصصنا) ولقد حاولنا أن نحلل ما رأينا والربط بينه وبين المسار الأكثر تقليدية لإستراتيجيات تخفيض الفقر، من ناحيتي حاولت أن أربط بين ما رأيت وبين الموضوعات المقترحة لتقرير البنك الدولي وهي التمكين والأمن والفرص، إن هذه الموضوعات لها صدى كبير على حياة "باسراباي" ولكن الذي طرأ على فكري أيضاً هو العلاقات البيئية المتداخلة بين هذه الموضوعات وبعضها البعض، فإن أي موضوع لا يصلح دون الآخر وكذلك فإن أي موضوع منهم لا يصلح قبل الآخر.

في الحقيقة فإن "باسراباي" وناظر "موهادي" قد بلوروا لي خطأ منطقياً من التفكير كالتالي:

يركز البنك الدولي والوكالات الأخرى على تتبع ما يمكن أن نطلق عليه "الحدود المحتملة لإنتاج" السياسات والتدخلات المناصرة للفقراء، ونتفحص البلدان والمناطق ضمن هذه البلدان ثم المجتمعات ضمن هذه المناطق ثم العائلات ضمن هذه المجتمعات للوصول إلى محددات خفض الفقر، وبالطبع فإن هذا له قيمة كبيرة، ولكن ما لا نستطيع أن نعرفه هو لماذا يتم اختيار بعض السياسات في مكان معين وليس في الأماكن الأخرى، بمعنى آخر إن جانب متطلبات السياسات والتدخلات المناصرة للفقراء مفقودة إلى حد كبير في تحليلاتنا، وأكثر ما يتضح ذلك في النتائج على المستوى المحلي الضيق والتي لها ديناميكياتها الخاصة تماماً.

تفاصيل الاتصال

Ravi Kanbur
TH Lee Professor of World Affairs
International Professor of Applied Economics and Management
Professor of Economics
Cornell University
309 Warren Hall Cornell University Ithaca
NY 14853-7801
USA
Tel: +607 255 7966
Email: sk145@cornell.edu

ملاحظات

هذا مقتطف من تقرير أطول تم كتابته بعد برنامج التعرض والحوار مع "الجمعية النسائية للعمل الذاتي" في يوليو/تموز 1999، والنسخة الكاملة يمكن الحصول عليها من المؤلف.